ISSN: 1817-6798 (Print)
Journal of Tikrit University for Humanities
available online at: www.jtuh.org/

Salah al_Din al-Ayyubi in the Writings of Orientalists: Hamilton Jeb as a Model

Prof. Sami A. Zahoo
Assist. Lect. Thaeer Salman. F

Tikrit University
College of Education for Human Sciences
Department of History

* *Corresponding author: E-mail* :
thaeer.salman.faisal@gmail.com

***Keywords*:**
Saladin,
Hamilton Gibb,
Orientalists,
Crusades,
Franks

A R T I C L E I N F O

Article history:
Received 25 May. 2022
Accepted 28 June 2022
Available online 17 June 2023
E-mail t-jtuh@tu.edu.iq

©2023 THIS IS AN OPEN ACCESS ARTICLE UNDER THE CC BY LICENSE
http://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

A B S T R A C T

Orientalists were able to follow Islamic history in a remarkable way, to the extent that they entered into the details of historical events, and we do not want to present judgments about what they wrote, but we are stopped by opinions that must be reconsidered, especially when they contradict the orientations of the Arabs or show how powerful the East is in imposing its will on the West. Among these aspects is the personality of Salah al-Din al-Ayyubi, as the Europeans, specifically the Orientalists of different ethnic affiliations, schools and countries, made many writings about the personality of Saladin, his battles with the Crusaders, his efficiency, and his administrative, military and moral capabilities. The westerners preferred Saladin for their own leaders. That is why the chosen author was chosen for this paper because of his authenticity and his narration is nearer to the reality of Saladin.

© 2023 JTUH, College of Education for Human Sciences, Tikrit University

DOI: http://doi.org/10.25130/jtuh.30.6.1.2023.10

صلاح الدين في كتابات المستشرقين هاملتون جب إنموذجاً

أ. د. سامي أحمد الزهو/ جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الانسانية
م. م. ثائر سلمان فيصل/ جامعة تكريت/ كلية التربية للعلوم الانسانية

الخلاصة:

استطاع المستشرقون ان يتابعوا التاريخ الإسلامي بطريقة لافتة للنظر حتى انهم دخلوا الى جزئيات الاحداث التاريخية ، ولا نريد ان نصدر احكاما عن ما كتبوه الا اننا تستوقفنا اراء لابد من اعادة النظر فيها خاصة عندما تكون متناقضة مع توجهات العرب أو تبين مدى قوة الشرق على فرض ارادته على

الغرب ومن تلك الجوانب هي شخصية صلاح الدين الايوبي، اذ ان الاوربيين وبالتحديد المستشرقون من مختلف الانتماءات العرقية ومختلف المدارس والدول، قدموا كتابات كثيرة عن شخصية صلاح الدين الايوبي ومعاركه مع الصليبيين، وكفاءته، وقدراته الادارية والعسكرية، والاخلاقية حتى انهم فضلوه على قادتهم واصبح انموذجاً للقيادة ، وهذا الوعي كان وراء اختياره عنوانا للبحث والذي يراد منه الوصول إلى آراء أهم مستشرق حول صلاح الدين اذ انه يمثل عصارة الآراء الغربية والاستشراقية فضلاً عن نزاهته وقربه من الحقيقة.

كلمات مفتاحية : صلاح الدين، هاملتون جب ، المستشرقين، الحروب الصليبية، الافرنج .

المقدمــة:

شغلت العديد من الشخصيات الإسلامية، والعربية، والعالمية الكتّاب، والمؤرخين، والمهتمين بالرجال، وقد انفرد مِن تلك الشخصيات مَن اتفقت حوله اراء الاعداء والاصدقاء في الان نفسه، ومن تلك الشخصيات صلاح الدين الايوبي، الذي امتاز بصفات قيادية جعلته انموذجاً للإنسانية وليس لجهة معينة، فاذا ما تابعنا كتابات اعدائه لا نجدها تبتعد في كثير من الحقائق عن انصاره ومحبيه، وهذا يدفعنا للوقوف عند هذه الظاهرة الفريدة واعادة دراستها بدقة، وصولا إلى العبرة التي ما زال العالم يبحث عنها، من اجل الافادة منها، بوصفها اسوة، وقدوة تجاوزت الانتماء للدين أو العرق، أو الجغرافية، وتسامى بسلوكه حتى نال رضى الانسانية .

ومن اجل ان يكون للإشكالية شواهد، ومصداقية تابعنا كتابات المستشرق الانكليزي هاملتون جب الذي نال احترام المعاهد الاكاديمية البريطانية، والامريكية وحتى الاوربية، وامتاز بالوسطية، والاعتدال، وقدم نتاجاً علمياً واسعاً كان أكثر تركيزه على صلاح الدين الايوبي الذي حارب باسم الإسلام، ورفع راية الإنسانية في سلوكه الحربي، والسلمي، وحقق انتصارات على جيوش جرارة، وقادة محنكين رافعي راية الغرب جميعاً الا انهم رغم كل ذلك لم يتركوا ارثا في نفوس اتباعهم كما تركه صلاح الدين.

ان هذا الامر كان حافزاً لاختياره عنواناً للبحث، والذي توزع الى ثلاثة مباحث اشتمل المبحث الاول على المستشرقين وتوجهاتهم نحو الشرق، واهتماماتهم بصلاح الدين الايوبي،

وركز المبحث الثاني على المستشرق هاملتون جب، وتطور اهتماماته البحثية عن صلاح الدين الايوبي، وكان المبحث الثالث مناقشة لآراء وافكار هاملتون جب عن صلاح الدين.

المبحث الاول: المستشرقون وصلاح الدين الايوبي

استطاع المستشرقون ان يقدموا دراسات مستفيضة عن الشرق سواء تاريخه، أو اديانه، أو لغاته، أو تراثه، أو ثقافته حتى بلغت مبلغاً يثير الاهتمام والتساؤلات عن الاسباب والدواعي لذلك الجهد المبذول، أو الاموال المنفقة، أو الوقت المستنزف، وقد اكد المتابعون لتلك النشاطات انها تتمحور حول اهداف علمية، ودينية، واستعمارية، واقتصادية تناسبت، ودور المستشرق، أو الجهة الداعمة والمستفيدة منه، وقد كان للقادة المسلمين حضوراً واسعاً في تلك الكتابات، ولا نبالغ اذا ما قلنا بأنهم لم يتركوا من مشاهير الشخصيات القيادية سواء على مستوى السياسة، أو الإدارة، أو العسكر، أو الفكر الا ولهم دراسات معمقة في توجهاتهم أو نشاطاتهم، وسيرهم، وما يثير الاهتمام التركيز على شخصية صلاح الدين الايوبي، اذ تعددت الدراسات، والتقييمات بقدر تعدد الدارسين زمنياً، وجغرافياً، ويبدو ذلك، واضحاً عند اقتباس تقييمهم لشخصية صلاح الدين.

فالمفكر الامريكي ول ديورانت صاحب كتاب قصة الحضارة يذكر صلاح الدين بطريقة تمثل مدى الإعجاب والانبهار بعظمة هذه الشخصية، وخاصة، ما جسده من مثل أخلاقية عليا في اجواء القسوة والقتل _ أي في شراسة الحروب بقوله [1]: " لقد مثلت أخلاق صلاح الدين مثالاً عالياً ونموذجاً فارقاً حوكمت إليه أخلاق الفرسان العرب، والأوروبيين على نحو سواء في كل زمن الحروب الصليبية، كما يذكر " لقد أجمعت الآراء على أن صلاح الدين كان أنبل من اشترك في الحروب الصليبية ".

واذا ما استعرضنا انموذجاً للأدباء العالميين[2]، في تقييمهم لشخصية صلاح الدين فسنجد وربما أولهم والتر سكوت الذي وجد في شخصية صلاح الدين البطل الذي يتسم بالنبل والشجاعة عاش في بلاد الحكمة والقوة والشجاعة ، وابتعد عن حالة الحرب وركز على المثل العليا التي أمتاز بها صلاح الدين وكيف حول الصراع الدامي إلى علاقة طيبة يجازف الخصم بحياته لإيصال الطلسم الشافي إلى خصمه[3]، ويبدو أن الصورة النهائية الذي حاول سكوت استخلاصها هي على الأوربي أن ينظر إلى صلاح الدين كخصم شريف ونزيه وجدير بالتقدير.

وقد كتب المستشرق ستانلي لين بول كتاباً مستقلاً عن صلاح الدين تحت عنوان (صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس) وكتاب اخر تحت عنوان (سيرة القاهرة)، فيذكر في كتابه الأول[4]، لافتاً النظر الى رواية سكوت بقوله : " لقد اعطانا وألتر سكوت في روايته الطلسم صورة نبيلة للسلطان الذي اثارت شهامته، واريحيته اعجاب الصليبيين" ، وبالمقابل فان مؤلف الكتاب وصفه بانه[5]" يعد كتاب صلاح الدين وسقوط مملكة بيت المقدس الذي صدر عام 1898م أول سيرة لصلاح الدين مكتوبة باللغة الانكليزية، ويمكن اعتباره ممهداً الطريق لمن بعده، ويصف شخصية صلاح الدين بقوله [6] " انها

تكونت من الشجاعة العجيبة، والكرم المتسامي، والمتسامح، والعفو عند المقدرة، ورقة القلب في المواقف الإنسانية، فقد تضرعت إليه نساء الفرنجة ان لا يستعبد رجالهن يوم فتح القدس فرق لهن وعفا عن رجالهن جميعاً، فبكت النساء فرحاً، وبكى صلاح الدين الرجل العظيم اشفاقاً، لان المواقف الانسانية كانت تهز اعماق قلبه الكبير".

ولا تبتعد كارين ارمسترونج عن ذلك الاهتمام فيما كتبته في كتابها (القدس مدينة واحدة وثلاث عقائد) كذلك ما ضمنته في كتابها (التاريخ لمدينة القاهرة)، وعند متابعة من كتب عن القدس نجده هو الاخر يبقى أسير سيرة صلاح الدين، ومنهم اولج فول كف في كتابه (القاهرة مدينة ألف ليلة وليلة)، ويتابعه في نفس النهج الكاتب كاستوف فييت في كتابه (القاهرة مدينة الفن والتجارة)." ويسترسل بول بإعجابه بسلوك صلاح الدين[7]" فيقول لقد تجمعت كل قوى العالم المسيحي في الحرب الصليبية الثالثة، ولكنها لم تستطع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه، ولما انتهت حروب السنوات الخمس، وخفت محنها ومصائبها لم يكن لصلاح الدين منافس يحكم الأقطار التي تقع بين جبال كردستان وصحراء ليبيا. وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينيا وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية – وكلهم وراء الحدود– يخطبون وده ويتوقون إلى محالفته"، ولهذا وصفه بأنه "بطل الإسلام العظيم" وأن ما فعله جعل اسم صلاح الدين يتردد على كل لسان حتى في أوروبا نفسها.

وهناك من انساق مع التحولات الفكرية والثقافية التي حصلت في أوربا نهاية العصور الوسطى وعالج مشكلة النظرة الاوربية الى الشرق مثل جوستاف لوبون في كتابه (حضارة العرب)، ومن كلامه عن صلاح الدين[8]" لم يشأ السلطان صلاح الدين أن يفعل في الصليبيين مثل ما فعله الصليبيون الأولون من ضروب التوحش، فيبيد النصارى عن بكرة أبيهم، فقد اكتفى بفرض جزية طفيفة عليهم مانعاً سلب شيء منهم" ومثله كارل بروكلمان في كتابه (تاريخ الشعوب الاسلامية) , كما قدم مايكل مورغان عرضاً عن صلاح الدين في كتابه (تاريخ ضائع)، وجاءت زيغرد هونكة لتؤكد اثر سيرة صلاح الدين في الثقافة الاوربية من خلال كتابها (الله ليس كذلك) وجاء فيه[9] "حين تمكن صلاح الدين الأيوبي من استرداد بيت المقدس (583هـ /1187م) الذي كان الصليبيون قد انتزعوه من قبل (492هـ /1099م) بعد أن سفكوا دماء أهلها في مذبحة لا تدانيها مذبحة وحشية وقسوة، فإنه لم يسفك دم سكانها من النصارى انتقاماً لسفك دم المسلمين، بل إنه شملهم بمروءته، وأسبغ عليهم من جوده ورحمته، ضارباً المثل في التخلق بروح الفروسية العالية، وعلى العكس من المسلمين، لم تعرف الفروسية النصرانية أي التزام خلقي تجاه كلمة الشرف أو الأسرى .

وهناك من المستشرقين من اعطى صورة تاريخية أكثر وضوحاً وعمقاً لمسيرة صلاح الدين ومنهم مكسيم رودنسون في مقالته (الصورة الغربية والدراسات العربية والإسلامية)، ويتبعه في ذلك توماس ارنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام). ويسوق توماس أرنولد عصر صلاح الدين وخلفائه كدليل على ما تمتع به النصارى من تسامح في البلاد الإسلامية فيقول:[10] في عهد صلاح الدين الأيوبي في مصر تمتع المسيحيون بالسعادة إلى حد كبير في ظل ذلك الحاكم، الذي عرف بالتسامح الديني، فقد خففت الضرائب التي كانت قد فرضت عليهم، وزال بعضها جملة، وملئوا الوظائف العامة، كوزراء، وكتاب، وصيارفة. وفي عهد خلفاء صلاح الدين نعموا بمثل هذا التسامح، والرعاية قرابة قرن من الزمان، ولم يكن هناك ما يشكون منه إلا ما اتصف به كهنتهم أنفسهم من الفساد والانحطاط، فبيعت مناصب القسيسين الذين اتصفوا بالجهل والرذيلة، على حين حيل بين الذين طلبوا التعيين وبين هذا المنصب المقدس، بعجزهم عن أداء الأموال المطلوبة في احتقار وازدراء، مع أنهم كانوا الجديرين بشغل هذا المنصب" .

واذا ما تابعنا وليم الصوري الذي يعد من مؤرخي الحروب الصليبية الميدانيين سنجده مضطراً الى متابعة عدو فرض نفسه على عدوه، فهو يحاول ان يتتبع سيئات صلاح الدين من جهة ولا يستطيع اخفاء اعجابه بهذه الشخصية من جهة ثانية، فيذكر عن علاقة صلاح الدين بالقائد نور الدين [11]" ازدرى صلاح الدين قوانين الانسانية وتغافل عن اصله وتنكر للأفضال التي اسبغها عليه والد الصبي من قبل فقام بالتالي ضد ابن سيده الذي لم يبلغ الحلم". وينتقده ايضاً في عرضه لما حصل في مصر بعد الدعوة التي وجهها له الوزير المصري للدفاع عن مصر بقوله :" ان صلاح الدين قتل بنفسه الخليفة الفاطمي وابنائه قبل الاستيلاء على ثروات الخزينة في مصر وافسد عسكرها بالذهب" [12]، ولا يتوقف الامر عند وليم الصوري بل يتعداه الى من ذيل لكتابه الا وهو ارنولد سائس اذ اشار الى امر غاية في الاهمية وفي احلك الظروف على الصليبيين واشدها مرارة ومع كل مرارة الهزيمة والاستسلام امام الجيوش الإسلامية وتسليم القدس فانه يشيد بسلوك صلاح الدين ويقدم صورة إنسانية قل نظيرها معبراً عما كان يفيض سلوك صلاح الدين بالشفقة والعطف تجاه السكان المسيحيين، كما اشار الى شهامته تجاه النساء، وبالخصوص نساء الفرسان، والقادة، مما دفعهم إلى نشر ذلك اللطف والشرف بين اوساط المجتمعات الاوربية [13].

ومن القادة الغربيين الذين اثر بهم سلوك صلاح الدين الإنساني الكولونيل البريطاني بودلي وقد ذكر في ذلك " لما غزا الصليبيون الارض المقدسة عام (1099م)، خلفوا وراءهم في كل مكان الموت والدمار، بيد انه لما رد صلاح الدين الايوبي الصليبيين على اعقابهم، لم يلجأ إلى وسائل الانتقام، ولم يخرب المسلمون الاماكن التي فتحوها، كما فعل المقاتلون الدينيون السابقون لهم من الممالك الاخرى ، فأينما وضعوا ارجلهم نشأ شيء جديد اسمى وافضل مما كان قبلاً [14].

ولا يمكن ان نستبعد، ما قاله المؤرخ البريطاني نورمان دانيال عن صلاح الدين[15] " انه أكثر شهرة من كل ملوك التاريخ الأوروبي، فلا ريتشارد قلب الأسد حصد عند غير الإنجليز من التكريم ما حصده صلاح الدين، ولا لويس التاسع كسب إعجاب الأوروبيين كما فعل صلاح الدين".

وهناك من لا يكن الود لصلاح الدين الا انه لا يستطيع مجافاة الحقيقة كما حصل مع المستشرق يوشع براور لسيرة صلاح الدين – إلا أنه قال فيه [16] "كان صلاح الدين بطل التاريخ الإسلامي زعيماً وقائداً عسكرياً متوسط القيمة، كما كان رجل دولة موهوباً، كريماً مع الصديق والعدو محباً للغير، يبعث عن الثقة. وكان صلاح الدين يجسد الأخلاق الإسلامية في عيون المسلمين، فهو الزعيم المثالي للحرب المقدسة ضد الكفار" .

وهناك من المؤرخين المرموقين في الغرب قد اعطى رأيا واضحاً في شخصية صلاح الدين ومنهم ادورد جيبون[17]"روحه الطموحة سرعان ما تخلت عن إغراءات اللذة لما هو أعظم خطراً من الشهرة والسلطان، كانت ملابسه من الصوف الخشن، وكان الماء شرابه الوحيد، وكان في زهده مثالاً في العفة، وهو في إيمانه وسلوكه مسلم صلب، وكان دائم الحزن، وأن انشغاله بالدفاع عن الدين حرمه من الحج إلى مكة، كان محافظاً على الصلوات الخمسة يومياً، يؤديها خاشعاً مع إخوانه، وإذا نسي فلم يصم حرص على الصدقة، وكان يقرأ القرآن الكريم على صهوة الخيل عند التقاء الجيوش، وربما نقل هذا على سبيل المبالغة كدليل على التقوى والشجاعة" .

المبحث الثاني: هاملتون جب وتطور اهتماماته البحثية عن صلاح الدين الايوبي

بدأ هاملتون ألكسندر روسكن جب(ت1391هـ/1971م)، حياته في مدينة الاسكندرية حيث مسقط رأسه عام 1895م، وكان والده يعمل في شركة أبي قير لاستصلاح الاراضي في مصر، وهنا تعلم اللغة العربية، ونشأ في الاوساط العربية، فنالت اللغة العربية اعجابه حتى انه لم يتمسك فقط بتعلمها بل بدراستها واتقان قواعدها، وفعلا ذهب إلى أسكتلندة، ودخل جامعة أدنبره عام 1912م، حيث تخصص في اللغات السامية العربية، والعبرية، والآرامية[18].

وفي 1922م حصل على درجة الماجستير من مدرسة اللغات الشرقية في جامعة لندن وبعد ذلك درس الادب العربي، وتم تعينه في عام 1929م مدرساً لتاريخ الادب العربي في جامعة لندن، وقد أصبح على كرسي اللغة العربية بعد وفاة السير توماس ارنولد عام 1930م، وكذلك خلفه بوصفه محرر لدائرة المعارف الإسلامية، وفي عام 1955م حصل على دعوة من جامعة هارفرد الامريكية ليكون استاذاً في كرسي الدراسات العربية، وفي عام 1957م أصبح مديراً لمركز دراسات الشرق الاوسط في جامعة هارفارد [19].

وقد توزعت اعماله الى ثلاث ميادين الاول هو الأدب العربي، والثاني التاريخ الإسلامي، اما الثالث فالأفكار السياسية الدينية في الإسلام، ويبدو ان الذي شغله قدرة الإسلام على تهيئة اتباعه لنشر

العقيدة وترسيخها فضلاً عن امكانية الدفاع عن المكتسبات التي تم تحقيقها، لذا نجده قد تابع الفتوحات في بلاد ما وراء النهر وخاصة في كتابه(فتوحات العرب في اسيا الوسطى) الذي اصدره عام 1923م، واهتماماته بالحروب الصليبية بوصفها حلقة الاتصال الحربي مع الغرب وتركيزه على شخصية صلاح الدين الايوبي، الذي يرى في سلوكه تجسيد للفكر الإسلامي في ادارة الحرب والسلم . وما يؤكد ذلك ترجمته لكتاب القلانسي (ذيل تاريخ دمشق) عام1932م، ويبدو ان دافعه الاهم هو تناول القلانسي لتاريخ الحروب الصليبية الاولى، ومن الواضح ان اعجاب جب بصلاح الدين لم يتوقف عند القلانسي ، بل لم يترك مصدراً يعينه على شغفه الا وطلبه، وما يؤكد ذلك كتابه الذي كتبه عن صلاح الدين الايوبي والمعلومات الدقيقة التي سردها فضلاً عن كثرة المصادر التي اعتمدها، جاء فيه قراءة لما كتبه عماد الدين الاصفهاني في كتابه (البرق الشامي)، وما لخصه ابو شامة عن عماد الدين في كتابه (الروضتين)، وعدّهما الاساس الذي تم اعتماده من بقية الكتّاب الذين كتبوا فيما بعد عن صلاح الدين[20].

ويبدو ان هاملتون جب ينتمي الى مجموعة المستشرقين الذين يؤمنون بالدور الإنساني في صناعة الحضارات، وهذا الذي دفعه لإعطاء صلاح الدين المكانة التي تليق به خلافاً الى ما ذهب غيره من المستشرقين في سلب الحضارة العربية الإسلامية نتاجاتها الحضارية الإنسانية [21].

واذا ما تابعنا سيرة جب الشخصية، والعلمية، سنجد التأثير المتبادل بينهما، فوجوده في مصر كان له الاثر الكبير في التعرف على الإسلام ومدى عمق اثره في نفوس معتنقيه، كما لم يبتعد عن دور المؤسسة الدينية في توجهات العامة، كل ذلك كان له حضور في نتاجاته التي سطرها حول الحضارة، والمجتمع الإسلاميين، ولاشك ان المعاهد الاكاديمية التي درس فيها، والاساتذة الذين درس على ايديهم كان لهم اسهام في صياغة افكاره عن الشرق، وبالنتيجة فاذا ما استعرضنا مؤلفاته وتزمينها سنتمكن من اعطاء تقييم عام لمسيرته العلمية والتي من خلالها نتعرف على تكامل صورة صلاح الدين الايوبي في ذهن هاملتون جب .

ان متابعة كتابات جب تمنحنا القدرة على التعرف بشكل اكثر دقة عن توجهاته الفكرية، ومدى تقييمه للحضارة العربية الإسلامية، والتطور الذي حصل في مسار الدعوة الإسلامية في كتاباته، وعند التعرف على باكورة اعماله الاستشراقية والتي مرّ ذكرها، وهي (الفتوحات الإسلامية في اسيا الوسطى) كرسالة لدرجة الماجستير، والتي كانت احد الاسباب في قناعاته بأن الدين الإسلامي هو القوة التي حققت وحدة المسلمين، وكما هو اساس التاريخ، والحضارة المشتركتين للامة، وعلى مختلف اجناسهم، وجغرافيتهم، وكذلك دراسته للآدب العربي تحت رعاية توماس ارنولد، كان له اثر واضح في ابتعاده عن منهج المبشرين، ومن ثم تحول الى دراسة الادب العربي المعاصر الذي منحه وعياً لإصدار احكام جديدة تشدد على ان الفتح الاسلامي للمناطق التي استطاع الوصول اليها كان وراء الوحدة الفكرية والثقافية

للشعوب التي اصبحت تحت سيطرته، وليس هذا فحسب بل اكد على ان الشعوب الجديدة كانت لها مشاركة فاعلة في الحضارة الإسلامية خلافاً لما كانت عليه قبل الإسلام[22] .

والامر الذي يمكن ان نلاحظه من كتاباته انه اهتم بدور الشخصيات في المسيرة التاريخية للحضارة العربية الإسلامية، فمثلا يتابع دور القادة الذين شاركوا في الفتوحات، ويعّده من الاسباب المهمة التي كانت وراء سرعة الفتوحات فافرد لعبدالله بن عامر[23]، وزاد عليه عند كلامه عن قتيبة بن مسلم الباهلي، كما اكد على ان الحجاج بن يوسف الثقفي وعبقريته وما له من دور واضح في انجاز مهام الفتوحات بتلك الدقة والسرعة .

ان هذا الوعي الذي سيطر على رؤية جب عن القادة المسلمين انتهى عند صلاح الدين الايوبي، ولم يكن ذلك الاعجاب منعزلاً عن احداث الحروب الصليبية ، بل على ما يبدو كان نتيجة لسلوك صلاح الدين الحربي والإنساني في مجريات احداثها ، فالحروب الصليبية شغلت معظم المستشرقين، وكتبوا عنها كل حسب توجهاته، وهاملتون جب هو الأخر لم يخرج عن دائرة المؤثرات التي حددت مساره العلمي والمعرفي، والذي كان تحت تأثير الفيلسوف توينبي[24]، اذ نظر إلى الحضارات الإنسانية بوصفها نتاج العقل الإنساني المتواصل، والمتكامل مع الاخر، لذا فانه نظر إلى صلاح الدين بوصفه انموذجاً للحضارة الإسلامية التي فاقت الحضارات الاخرى بالجوانب القيمية التي جسدها صلاح الدين.

ان المتابعة الجادة للحروب الصليبية من قبل هاملتون جب اظهرت له بان الانتصارات التي حققها صلاح الدين ليس سببها ضعف اعدائه بل لأنه امتاز بمواصفات، اذا ما توفرت في أي قائد سيحقق الذي حققه صلاح الدين، اذ نال شهرة في كتابات مؤرخي الشرق، والغرب بأنه فارس نبيل، وبطل شجاع، وقائد من بين أفضل من عرفتهم البشرية، كما اعتمد استراتيجية عسكرية ناجحة [25]، ان عظمة صلاح الدين لا تتجلى فقط في انتصاراته، وفتوحاته، وتحرير بيت المقدس، بل العظمة الحقيقية لصلاح الدين أنه كان مدركاً بكل وضوح، أن عوامل وأسباب انتصاراته ليست مرتبطة بشخصه، أو بالقتال العسكري المجرد، بل هي متعلقة بفريق متكامل من الشخصيات، أو البطانة الصالحة، ولتقوية استراتيجيته أيضاً، فأحدث السلطان صلاح الدين التغير في النظم الإدارية للدولة بدأها من نائب السلطة الذي أعطاه الصلاحيات الواسعة، ومن ثم بإصلاحات الدواوين، وأهم الوظائف والتقسيمات الإدارية للدولة، ثم أعطى مكانة ودور مميز للقضاء وأهم رجالاته لجهودهم السياسية والعسكرية في جهادهم[26].

المبحث الثالث: صورة صلاح الدين الايوبي عند هاملتون جب

بعد سنوات طويلة من القراءة، والكتابة، والجدل، والتفسير، والتحليل لسلسلة من الاحداث التاريخية المتداخلة والمتناقضة، استطاع جب ان يختم اعماله عامة، وعن الحروب الصليبية خاصة، بكتابه (صلاح الدين الايوبي – دراسات في التاريخ الإسلامي)، وقد ضمنه مقدمة عرج فيها على سيرورة الدولة

العربية الإسلامية، والاسس التي سارت عليها، وما انتجته من احداث كانت سبباً فيما حصل من فتوحات، أو حروب داخلية، أو صراعات على السلطة، وانشعاب المجتمع الى تكتلات وطوائف، وظهور احزاب وعقائد، جعلت من الدولة العربية الإسلامية تتوزع إلى سلطات في اكثر الأوقات، متناحرة، أو تتهيأ للصراع مما اضعف كيانها وجعلها عرضة للطامعين، ومن اهم محطات الصراع ــ الحروب الصليبية التي سيبدأ موضوع كتابه من خلالها، ويستكمل مقدمته عن المصادر العربية التي قادته إلى ما وصل إليه من اراء، وتحليلات، فيؤكد ان المعلومات عن صلاح الدين الايوبي تستحق ان نمنحها الثقة، وينتقل إلى دمشق وما يحيطها من تناقضات، ومماحكات بين المتنافسين على توسيع ممتلكاتهم سواء منهم النصارى ام المسلمين، وتعرض لأسباب قوتهم، وضعفهم من خلال العدد، والعدة، فأكد على ان تنوع الاعراق والجنسيات التي تحالفت، أو انضوت تحت قيادة واحدة بقدر ما توفره من قوة فبالمقابل تعد سبباً للقلق، وعدم الثبات في الجبهة الواحدة، كما تطرق إلى أنواع السلاح، ومن يتخصص به وما يوفره التنوع من قوة وبأس اثناء الحروب، وبالمقابل فان تلك القوة لا تصمد امام الانتماءات العرقية والجهوية ، اذ سرعان ما تنفلت جهة معينة عن التكتل انسياقاً وراء قائدها وبذلك يمكن وصف الجبهة الإسلامية بعدم الاستقرار والثبات، وبعد ان استنفذ ما يقارب نصف اوراق كتابه يشرع هاملتون جب بفصل جديد عن صلاح الدين وكأنما أراد لقارئه ان يطمئن لتلقي المعلومات الدقيقة والخالية من المبالغة عن شخصية اعطت للآخر اكثر مما اخذت، فيبدأ بالقول[27]" يشكل عهد صلاح الدين اكثر من حادثة عابرة في تاريخ الحروب الصليبية، فهو يمثل احدى تلك اللحظات النادرة والمثيرة في التاريخ البشري، وذلك عندما يكون التصميم الأخلاقي، ووحدة الهدف، قد اطاحا لفترة وجيزة بكل من الشك في طيبة الدوافع البشرية والتحرر من الوهم" .

اختزل هاملتون جب حياة ونشأة صلاح الدين الاولى بخصلتين الاولى تربيته الدينية ومتابعته لدروس الفقه والقرآن الكريم، والثانية حبه للفروسية وتفوقه على غيره [28]، وهذا يبرهن على القراءة الواعية واستشراف حقيقي لما حصل لصلاح الدين من مسيرة جهادية اثمرت مكانة معنوية لدى الأصدقاء، والأعداء فضلاً عن الانتصارات التي حققها، ومن اهمها تحرير بيت المقدس الذي مازال شامخاً وانموذجاً لكل القادة.

وقد قدم هاملتون جب صورة واضحة عن اسباب انتصارات صلاح الدين، مستبعداً الآراء التي اعتقدها غيره اذ قال: " ان نجاح صلاح الدين الرائع... في غضون فترة قصيرة (18 شهراً) ...لذا عدّوه بمثابة قائد عظيم وناجح، حيث كان الفضل في انتصاراته عائداً إلى الصفات العسكرية ذاتها والتي تحلى بها غيره من قادة الجيوش الناجحين، وهذه إساءة فهم تامة، حقاً أن صلاح الدين امتلك فضائل عسكرية شخصية ذات مرتبة رفيعة، لكن جاءت بفضل امتلاكه لصفات معنوية(ادبية) لا تشترك مع المواهب الاستراتيجية الا في قليل، كان رجلاً يستمد وحيه من مثال اعلى ذي قوة وثبات، ولقد جعله تحقيق هذا المثال ينهمك في الضرورة في سلسلة طويلة من النشاطات العسكرية ".

اذن في هذا النص صورة واضحة عن استيعاب جب لشخصية صلاح الدين بما يبدد الشك من نفوس الذين يعتقدون انه وقع تحت تأثير الآراء الاستشراقية، أو حتى الإسلامية فقد أنفرد بوجهة نظر تتميز بالتريث في إصدار أحكامه، وما يؤكد ذلك النص الذي شدد فيه جب في جميع مفاصل كتابه عن صلاح الدين بقوله: [29]" لنتساءل هل كان صلاح الدين واحداً من أولئك القادة العديمي الضمير؟ أو من المحظوظين الذين كان باعثهم والمحرك لهم هو الطموح الشخصي وشهوة الفتح، وجل ما فعلوه أنهم استغلوا الشعارات والعواطف الدينية لتحقيق مأربهم الخاصة؟ "[30].

إن هذا التساؤل يطرح نظرية فلسفية عميقة لا تستثني احداً من القادة سواء منهم الصليبيون ام غيرهم، وملخصها ان رجال التاريخ لا يمكن كشف نتاجاتهم الإنسانية الا من خلال اثارهم على اعدائهم وانصارهم، وقبل ان يقرر هاملتون جب اجابته يعود الى حقيقة يؤمن بها، والتي مفادها [31]، ان الدوافع التي حركت أعلام التاريخ البارزين الاوربيين لا تصمد امام النقد التاريخي الصارم"، وعلى هذا لم يبقى امامه سوى المصادر العربية التي منح لبعض منها الثقة الكاملة لقبول المعلومة، ومنها تاريخ ابن طي، وابن شداد وكتابه النوادر السلطانية، وابن الاثير في كتابه الكامل، وكتاب البرق الشامي لعماد الدين الاصفهاني، واخيراً القاضي الفاضل في كتابه رسائل القاضي الفاضل، ومنها قدم جب نظرة ايجابية عن حياة صلاح الدين، نستطيع القول انها تتمسك بالحقيقة لأنها صادرة من عقل أوربي محايد ومصادر عربية إسلامية.

الخاتمة والاستنتاجات:

1- شغل صلاح الدين الايوبي أقلام المستشرقين لأجيال سواء منهم المنصف أو المجحف.
2- قدم هاملتون جب صورة رائعة لمسيرة صلاح الدين الحربية والسلمية.
3- استطاع هاملتون جب أن يوازن بين الانتماء الديني والعرقي وبين النتاج الإنساني.
4- أصبح صلاح الدين الايوبي مثلاً للعطاء الإنساني في أوربا والغرب عامة.
5- انشغل هاملتون جب بحياة صلاح الدين الايوبي منذ وقت مبكر من حياته العلمية والمعرفية.
6- يجد القارئ لنتاجات هاملتون جب حضور لشخصية صلاح الدين الايوبي بوصفه قائداً عسكرياً ومدنياً في الان نفسه.
7- يتبين من خلال البحث ان شخصية صلاح الدين هي الشخصية المهيمنة على الصراع الصليبي الإسلامي في كتابات هاملتون جب.

الهوامش:

(1) ديورانت: ول، قصة الحضارة، مطبعة دار الجيل (بيروت، 1988م)، 141/13.

(2) جاسم: ناصر الملا، صلاح الدين في القصص الرومانسية الفرنسية والإنكليزية، مجلة مركز الوثائق والدراسات الإنسانية في جامعة قطر، العدد(8)، 1996م، ص272.

(3) سكوت: والتر، الطلسم، تعريب محمود محمود محمد، مطبعة لجنة التأليف والترجمة (القاهرة ،1938م)، ص325.

(4) بول: ستانلي لين، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، تحقيق، فاروق سعد ابو جابر، دار الاهرام، (القاهرة، 1995م)، ص278_288.

(5) بول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ص12.

(6) بول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ص8.

(7) بول: ستانلي لين، سيرة القاهرة، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرون، ط2، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، د. ت)، ص158_ 159؛ بول، صلاح الدين وسقوط مملكة القدس، ص288.

(8) لوبون: جوستاف، حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب (القاهرة،2000م)، ص329.

(9) زيجريد: هونكه، الله ليس كذلك، ترجمة د. غريب محمد غريب، ط2، دار الشروق (القاهرة، 1996م)، ص34.

(10) رودنسون: مكسيم، تراث الإسلام، بإشراف: شاخت_ بوزورث، ترجمة: د.محمد السمهوري واخرون، تعليق وتحقيق: د. شاكر مصطفى، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدب (الكويت، 1978م)، ص41_42.

(11) الصوري: وليم، تاريخ الأعمال المنجزة فيما وراء البحار، ضمن: سهيل زكار، الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية، دار الفكر (دمشق، 1995م)، 7/ 327.

(12) الصوري، تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار، 334/7.

(13) الصوري، تاريخ الاعمال المنجزة فيما وراء البحار، 7/ 329.

(14) بودلي: رونالدف، الرسول: حياة محمد – ترجمة: محمد محمد فرج _ عبد الحميد جودة السحار، مكتبة مصر (القاهرة، بدون تاريخ) ص147.

(15) مجموعة باحثين، النهوض العربي ومواكبة العصر، المؤسسة العربية (عمان، 2005م)، ص 39.

(16) براور: يوشع ، عالم الصليبيين، ترجمة وتقديم وتعقيب: د. قاسم عبده قاسم _ د. محمد خليفة حسن، ط1، عين للدراسات والبحوث (الجيزة، 1999م)، ص59.

(17)Edward Gibbon ,Empire ,The History of the Decline and Fall of the Roman, (New York, J. & J. Harper, 1826), Vol 6, pp 25, 26.

(18) بدوي : عبد الرحمن، موسوعة المستشرقون، ط٤، دار الفارس للمطابع المركزية (عمان،٢٠٠٣م)، ص١٧٤وما بعدها.

(19) حوراني: البرت، جب : هاملتون – انجازات مستشرق، ترجمة: سلام فوزي، مجلة الانماء العربي، العدد (32)، 1983، ص 373-374.

(20) Gibb, H.A.R." al-Barq al-Shami: The History of Saladin by the Katib "Imad-dn Al-Isfahani", p.93-1115.

(21) الآلوسي: حسام محي الدين، صورة نقدية للاستشراق التقليدي والجديد، مجلة الاستشراق، العدد (3)، 1989م، ص 60-61.

(22) جاسم: ناصر الملا، الاستشراق البريطاني في القرن العشرين، دار رؤية للنشر (د. م ،2017م)، ص177 .

(23) عبد الله بن عامر بن كُريز بن عبد شمس القُرشي وُلِد بعد الهجرة النبوية بأربع سنوات، وحين قَدِم النبي –صلى الله عليه وسلم– من المدينة المنورة إلى مكة لقضاء عمرة القضاء سنة سبع من الهجرة، حُمل إليه عبد الله بن عامر وهو ابن ثلاث سنين، فحنّكه (أي مضغ تمراً ووضعه في فمه) فتثاءب، فعوّذه النبي –صلى الله عليه وسلم– وقال: "هذا ابننا وهو أشبهكم بنا وهو مسقى". أبن عساكر: أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي(571هـ)، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق: أبي سعيد عمرو بن غرامة، دار الفكر (بيروت،1995م)، 249/29.

(24) محمد: أحمد نظمي، الاستشراق والخروج من المأزق، مجلة الاستشراق، العدد(3)، 1989م، ص 90.

(25) جب: هاملتون، صلاح الدين الايوبي _ دراسات في التاريخ الإسلامي، حررها: يوسف أيبش، المؤسسة العربية للدراسات والنشر(د. م ،1973م)، ص 118.

(26) جب، صلاح الدين الايوبي، ص 119.

(27) جب، صلاح الدين الايوبي، ص 118.

(28) جب، صلاح الدين الايوبي، ص 119.

(29) جب، صلاح الدين الايوبي، ص 180.

(30) جب، صلاح الدين الايوبي، ص179.

(31) جب، صلاح الدين الايوبي، ص180.

Sources and references:

•Ibn Asaker: Abi Al-Qasim Ali bin Al-Hassan bin Heba Allah bin Abdullah Al-Shafi'i (571 AH).

1- Ta'reekh Damascus, edited by: Abi Saeed Amr bin Gharamah, Dar Al-Fikr (Beirut, 1995)

•William of Tyre

2- The History of Works Historia Rerum of The Crusader Historian, included: Suhail Zakkar, The Comprehensive Encyclopedia of the Crusades, Dar Al-Fikr (Damascus, 1995).

•Badawi: Abdul Rahman

3 _Encyclopedia of Orientalists, Dar Al-Faris for Central Printing Press (Amman, 2003).

•Brawer: Joshua

4 _The World of the Crusaders, translation, presentation and commentary: Dr. Qassem Abdo Qasim _ d. Mohammed Khalifa Hassan, appointed studies and research (Giza, 1999.(

•Bodley: Ronald

5 _The Messenger: The Life of Muhammad, translated by: Muhammad Muhammad Farag _ Abd al-Hamid Judeh, Library of Egypt (Cairo, d.T.(

•Paul: Stanley Lane

6 _The Biography of Cairo, translated by: Hassan Ibrahim Hassan and others, 2nd Edition, The Egyptian Renaissance Library (Cairo, 2011.(

7 _Salah al-Din and the Fall of the Kingdom of Jerusalem, edited by: Farouk Saad, Dar Al-Ahram (Cairo, 1995)

•Jassim: Nasser Al-Mulla

8 _British Orientalism in the Twentieth Century, Roya Publishing House (Dr. M, 2017).

•JP: Hamilton

9 _Salah al-Din al-Ayyubi _ Studies in Islamic History, edited by: Youssef Ibish, The Arab Foundation for Studies and Publishing (Dr. AD, 1973).

Durant: Well

10 _The Story of Civilization, Dar Al-Jeel Press (Beirut, 1988).

Rodinson: Maxim

11 _Heritage of Islam, under the supervision of: Shacht_ Bosworth, translated by: Dr. Muhammad Al-Samhouri and others, commentary and investigation by: Dr. Shaker Mustafa, The National Council for Culture, Arts and Literature (Kuwait, 1978.)

•Scott: Walter

12 _Talisman, Arabization: Mahmoud Mahmoud, Composition and Translation Committee Press (Cairo, 1938 AD)

•Le Bon: Gustave

13 _Civilization of the Arabs, translated by: Adel Zuaiter, Egyptian General Book Organization (Cairo, 2000 AD.)

•group of researchers

14 _Advancing and Keeping Up with the Times, The Arab Foundation (Amman, 2005).

•Honke: Sigrid

15 _God is not like that, translated by: Gharib Muhammad Gharib, 2nd Edition, Dar Al-Shorouk (Cairo, 1996 AD)

Foreign books:

•Edward Gibbon, Empire , The History of the Decline and Fall of the Roman, (New York, J. & J. Harper, 1826).

•Gibb, H.A.R." al-Barq al-Shami: The History of Saladin by the Katib "Imad-dn Al-Isfahani".

periodicals:
•Al-Alusi: Hussam Mohieldin
1 _A critical picture of traditional and new Orientalism, Orientalism magazine, issue (3), 1989 AD.
•Jassim: Nasser Al-Mulla
2 _Salah al-Din in the French and English Romantic Stories, Journal of the Center for Documentation and Human Studies at Qatar University, Issue (8), 1996 AD.
•Hourani: Albert, J.B. Hamilton
3 _Orientalist Achievements, Arab Development Magazine, Issue (32), 1983 AD.
•Mohamed: Ahmed Nazmi
4_ Orientalism and getting out of the impasse, Orientalism magazine, issue (3), 1989 AD